مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 09 عدد: 01 السنة 2023 E-ISSN:2588-2325

الرموز ضمن البنية المورفولوجية للسكن التقليدي الجزائري: رمز الخامسة نموذجا

Symbols within the morphological structure of Algerian traditional housing : The Khamsa as an example

حسناء سعدي*، مخبر المجتمع الجزائري المعاصر، جامعة سطيف 2، sadihasna96@gmail.com
حسان حامي، مخبر المجتمع الجزائري المعاصر، جامعة سطيف 2، hasanhhami@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/03/15 تاريخ القبول: 2023/05/19 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:

بالاستناد إلى مرتكز العلاقة الجذرية بين الإنسان والسكن وتموضعه في قمّة الأمكنة الأكثر صلة بساكنيها، وأكثرها تحقيقا لحاجة إقرار الوجود والإنتماء بفعل علاقة التفاعل والإمتداد بين السكن وساكنه، حيث تتمّ على مستواه مجموعة الممارسات المعبّرة عن أفكار وإنفعالات وحميمية ساكنه، وعمق معتقداته التّي تمثّل مادّة خصبة لشبكة من المعاني الرمزية والتمثّلات التّي تكشف عن القيم والمرتكزات المتأتّية من سيرورة التاريخ والواقع الاجتماعي والثقافي، يحاول هذا المقال ملامسة موضوع الرموز ضمن البنية المورفولوجية للسكن التقليدي الجزائري، إذ يروم إلى تقديم قراءة رمزية لبنية السكن عموما والسكن التقليدي الجزائري بصفة خاصّة، وإبراز تمثّلات الأفراد للرموز ضمن بنية السكن التقليدي، إضافة إلى سيميائية الخامسة كرمز وقائي للتصدّي للحسد والعين الشريرة.

وقد توصّلت الدراسة إلى أنّ استحضار رمز الخامسة ومثيلاته من الرموز ضمن بنية السكن التقليدي الجزائري، يرجع إلى تمثّلات الأفراد حول الممارسات السلوكية الوقائية للسكن كمرتكز ثابت لتحقيق الذّات وإقرار دلالة الترابط والتفاعل بين الفرد ومعتقداته.

الكلمات المفتاحية: الرمز، البنية، السكن التقليدي، التمثّلات، الخامسة.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Based on the foundation of the radical relation between human and housing and its positioning at the top of places most relevant to its inhabitants, and most of which fulfill the need to affirm the existence and belonging due to the interaction and extension between housing and its inhabitant, where a set of practices expressing the thoughts, emotions, and intimacy of its inhabitants, and the depth of its beliefs that represent fertile material for a symbolic meaning and representations web which reveal the values and foundations derived from the process of history and the social and cultural reality, and on it, this article attempts to touch on the topic of symbols within the morphological structure of the Algerian traditional housing, through which we aim to provide a symbolic reading of the structure of housing in general and the Algerian traditional housing in particular, we treats also the individuals' representations of symbols within the structure of traditional housing, besides the semiotics of the khamsa as a protective symbol to avoid the envy and the evil eye.

the study concluded That the evocation of the khamsa and its similar symbols within the structure of the Algerian traditional housing, due to the representations of individuals about the preventive behavioral practices of housing as a fixed basis for self-realization and the recognition of the significance of interdependence and interaction between the individual and his beliefs.

Keywords: Symbol, Structure, Traditional housing, Representations, The Khamsa.

مقدمة:

ارتبط الإنسان بحالة التجمّع وعوامل الحياة الاجتماعية، نظرا لتركيبه العضوي الذي يحتاج إلى وسائل الحياة، بما ركب فيه من غرائز وعواطف وأحاسيس وشعور وعقل يدرك به الأشياء ويميّز به ما ينفعه وما يضرّه (ديلمي، 2007، صفحة 34)، وأوّل الأسباب التي دعت الإنسان إلى تكوين سكن هو حاجته إلى مأوى يقيه من قساوة الطبيعة ومن العوامل الجوّية والمناخ، فكان السكن أوّل عمل معماري له، وكانت هذه العوامل أوّل المؤثّرات في تكوين الفكرة المعمارية للسكن، فسعى الإنسان

إلى تطوير سكنه وفق أفكار عكست تأثيرات اجتماعية مختلفة نمت وتطوّرت مع تطوّر علاقاته الاجتماعية و تكوين أسرة.

ويعدّ السكن محتوى فعاليات الإنسان وأحد أهمّ مقتنياته عبر التاريخ، بكلّ ما يتضمنه كبنية من عناصر شكلية وقواعد وعلاقات ورموز تنظم الفضاء المعيشي فيه، فالتكوينات الشكلية للسكن تجسّد حياة ساكنيه بمراعاة القواعد الهندسية والموقع الجغرافي الذي يفرض تأسيس بنية معمارية تؤنسن ما حولها من عناصر البيئة الطبيعية لتحقيق الحاجات الأساسية للفرد. فالسكن امتداد مكاني - زماني يستوعب البعد الإنساني المتكامل ويتّصف بقدر من الثبات النسبي لمكوّناته المادية، كونها خاضعة لنظام فكري ممثّل في منظومة الرموز المعبّرة شكليا، لذا فإنّ البحث في مجالات التفاعل بين الإنسان والمكان يمكن أن يكشف عن الدلالات الرّمزية والبنيوية للأماكن، خاصة منها السكن الذي يؤرّخ لمستويات من البناء الثقافي في جوانبه المتعدّدة وفق سياق زماني وسيرورة من المعاني والدلالات المرتبطة سوسيولوجيا وأنثروبولوجيا.

فقد أصبح السكن المحور الذّي تتّصل به شبكة العلاقات الاجتماعية، وقد اختلفت طبيعة تكوين هذه الشبكة وقوة العلاقات التي تحتويها متأثّرة بالتطور الذي يخضع له ذلك المجتمع نتيجة لعدّة عوامل فاعلة، أهمّها اعتناقه للأديان والمعتقدات، وتفاعل عناصر ثقافته مع ثقافات أخرى لذا اعتمدت التصاميم والهندسات الأولى للسكن على أسلوب واقعي باستخدام المواد المتوفّرة بالتجربة والخطأ، فسعى الإنسان الأوّل إلى البحث عن الراحة والحماية، وكان عليه أن يبني مأوى له ثم يسعى لإنشاء مجمّعات سكنية تجاورية تحقّق الأمن والخصوصية (المعموري، 2011، صفحة 240). فاتّخذ بداية البيوت الصخرية الطبيعية مسكنا له، ثم بدأ في رعاية الأغنام والإبل، وشيّد مسكنه من جلود الحيوانات والصوف، وبعدها فكّر في الطين وفروع الأشجار، ثمّ بدأ يضيف لسكنه عناصر زخرفية وتشكيلات رمزية مع تطوّر الحضارات الإنسانية خاصّة الحضارات النهرية، حيث تطوّر فن العمارة ليصبح السكن سكنا للإنسان ولروحه لا مأوى له فقط (ديلمي، 2007، صفحة 35)، فبعد اعتماده في بناء سكنه على المعطيات الواقعية واستخدام المواد المتوفّرة محليّا استخداما واعيا، انتقل بحاجاته إلى مستوى الارتباط بمنظومة القيم الإنسانية والثوابت الاجتماعية والمعطيات السياسية والاقتصادية والوقائع الجمالية والأخلاقية ونسق المعتقدات والدّين، أي أنّ الرؤيا الواسعة للسكن كبنية تتجاوز تسخير المناخ والمحيط إلى تيسير وتسهيل الفعاليات الإنسانية والتموقع ضمن المنظومة الثقافية الحاضنة لبيئة السكن.

فما هي دلالة استحضار الرموز ضمن بنية السكن التقليدي الجزائري وفيما تتركّز أبعادها الوظيفية؟

1. حول المتخيّلات والرموز في بنية السكن التقليدي:

يعتبر السكن في أبسط معانيه الفضاء الذّي يأوي الإنسان ليحميه من العوامل الخارجية، ويتمّ فيه تجديد طاقة الإنسان وتحفيزه من خلال الراحة، الأكل، النوم، وتؤثّر العوامل الدينية والاجتماعية والثقافية وعاملي الموقع والمناخ على بنية السكن، فيعتبر أنه الوطن، المكان والثقافة، ومن أهمّ صفات السكن هو تناسق عناصره كرموز وإشارات لوظائف أو دلالات ثقافية أو سياسية أو معاني أخرى يستدلّ عليها الإنسان، فهذه الرموز تمكّنه من فهم سكنه والتموقع فيه ضمن ما تمليه عليه المنظومة الثقافية والاجتماعية لمجتمعه، خاصة أنّها توجه اختيارات الفرد وطرق تقييمه وقراءته للمكان.

ويمتلئ السكن التقليدي بصفة خاصة كبيئة مكانية بالمعاني الرمزية الظاهرة والكامنة، المستمدة والنابعة من المنظومة الثقافية للمجتمع وطقوس توظيف هذه الرموز، كونها جزء من النتاج الحضاري الهادف لتحقيق الذات، فصور السكنات التقليدية كنتاج معماري لها شفرات جزئية ذات طبيعة مزدوجة تحفّز الفرد على التفكير، حيث يعتمد التواصل والاتصال على أنظمة رمزية تنقل الأفكار ضمنيا، يدركها الأفراد بشكل شعوري أو لاشعوري وتؤثّر على مشاعرهم وأحاسيسهم وسلوكاتهم في المحيط المكاني والفضاء التفاعلي الخاصّ بهم، كما تعدّ الرموز في السكن التقليدي الجزائري من الوسائل المهمّة التّي تمنح الأفراد الإحساس بالانتماء للمجتمع وللمكان (الماجدي، 2009، صفحة 287)، فالعيش ضمن شبكة من الرموز وتوظيفها تمنح للأفراد فعالية التأثيث لوجودهم في إطار عالمهم المادّي والمعنوي، وإرساء نظام الأشياء وميدان المعايشة الاجتماعية، وهذا لا يدرك إلاّ من خلال تحقيق الرموز للمعاني والدلالات التّي تتّخذها في متخيّلهم الجمعي كما أشار إليها pierre ansart بيار أنصار: "إنّ المجتمعات سواء الحديثة منها أو التقليدية، أو تلك المسماة بلا كتابة تنتج دوما متخيّلات des imaginaires لتعيش بها وتبني من خلالها رموزها وصورها عن نفسها وعن الأشياء والعالم، وبواسطتها تحدّد أنظمة عيشها الجماعي ومعاييرها الخاصّة" (المحواشي، 2010، صفحة 15). فالمستوى الرمزي لتشكيل الصور الخيالية تترجمه الثقافة واللغة وأشكال الإنتاج الذهني والفنّي للإنسان، حيث يؤلّف السكن التقليدي صورة لعلاقة التمفصل بين السكن كحاوية ومحتوياته الرمزية، فلا يمكن قراءته باعتباره فضاء مادّي قائم على تحويل هندسي وظيفي للمكان دون اعتباره معيشا ومتخيّلا مشحونا بالتمثّلات وبكثافة رمزية، فعملية تحويل المكان واستغلاله تتمّ وفق نماذج

ثقافية مستمدة حتى وإن كان إنتاج الفضاء من قبل المخطّطين سابقا لتملكه وتخصيصه وتقسيمه لفضاءات معيشية يومية (صولة، 2005، صفحة 05).

2. حول بنية الرمز، الدلالات والتمثّلات:

إنّ الرموز جزء من ثقافة أيّ مجتمع وأحد أهمّ مرتكزاتها، حتى أنّ عالمنا الاجتماعي عبارة عن أنسجة رمزية ذات خصوصية يحدّدها وينتجها الزمان والمكان، والغاية النهائية للرمز هي نقل وإيصال الأفكار ومعانيها من عقل شخص إلى عقل شخص آخر حيث يهتمّ الباحثون في محور البحث حول الرموز بمدى كفاءة انتقال وتحوّل المعاني عن طريق الرموز، في حين يهتمّ باحثون آخرون بمحتوى الدلالات والمعاني التي تحملها الرموز لنا، وإنتاج الرموز سمة خاصّة في الإنسان تضع مخياله في إطار إبداعاته الفكرية، فالرموز هي العلاقة التّي تجمع بين المحتوى الظاهر والمعنى الخفي لسلوك أو لفكرة أو لمعتقد، وعلى المستوى اللغوي يعرّف عالم اللسانيات السويسري فرديناند دوسوسير ferdinand de saussure الرّمز على أنّه حامل التصوّر أو المعنى.

ونجد في أدب النقد وتاريخ العمارة إستعمال مصطلح "رمز" بدلالتين مختلفتين، حيث يستعمل مصطلح الرمز symbol في مجال الدراسات السيميائية بمفهوم دلالات الإشارة والمؤشّرات والمعالم والإيماءات، كما تستعمل بدلالة التمثّل representation فمثلا، يقال شكل القلب أو رمز القلب يمثّل أو يرمز إلى الحب، واللون الأحمر يرمز أو يمثّل الخطر والحب والدم والثورة. فنجد هنا استعمال مصطلحين للدلالة نفسها، أي أنّ الشيء أو الشكل يمثّل مفهوما أو قيمة (الجادرجي، 2006، صفحة 138). ويؤكّد كليفورد غيرتزclifford geertz على أهمية الرموز في دراسة الظواهر الثقافية، لأنّها تحمل معنى حقيقي مادّي يبرز الحقيقة الإنسانية التي تتطابق مع الواقع الذي نقترن به، مثل القيام بالتخطيط لمسكن مازال لم يبن بعد.

كما أنّ الإنسان يحتاج إلى الرموز والأنظمة الرمزية لدرجة يعتبرها عناصر حيوية تحفظ كلّ ما هو مكتسب، فالأفعال والأشياء والروايات والعادات قد اعتبرت عند أفراد المجتمع بمنزلة الركائز الأساسية في نظرتهم للعالم الذي يعيشون فيه (أحمد، 2020، صفحة 302)، فيعتبر أيّ شيء يدّل على شيء آخر ويمكن لأيّ موضوع أو فعل أو حدث أو علاقة أن تكون حامل لتصوّر ما، فالتصوّر هو معنى الرمز والرمز هو حامل التصوّر أو المعنى سواء كان ذلك الحامل موضوعا مادّيا أو فعلا أو حادثة أو صفة أو علاقة (الأسود، 1991، صفحة 323).

3. السكن بين الحاجة النفعية والحاجة الرمزية:

كلّ الأنظمة الاجتماعية في حياتنا قائمة على معادلة الحضور الرمزي، وقراءة الرموز ضمن بنية السكن التقليدي كموضوع سوسيوثقافي يمكّن من تجاوز المقاربات الحدسية والأدبية لهذه المسألة، فالرموز حسب رؤية غيرتز تمكّننا من بلوغ مستوى عميق من التحليل ودراسة النظم الثقافية، وتوجيه أنفسنا داخل الطبيعة وداخل المجتمع وداخل العالم في مختلف أنشطتنا، حيث نتجاوز بها التعارض القائم بين ماهو موجود وما يجب أن يكون، كما تمكّننا من صياغة وإنتاج أنماط ثقافية حقيقية، تكون خاضعة لما هو واقعي وهي أنماط تعمل على إعادة صياغة الواقع وفق تمثّلاتنا (أحمد، 2020، الصفحات 302- 303)، فالسكن التقليدي كلغة يتكون من عدد من الرموز، كل واحد منها يمتلك معنى واحد أو مجموعة معاني تستمد قيمها وروحها من نفس البيئة، و يتجلّى ذلك من خلال التوظيف المرتبط بذلك الرمز والعلاقات التي تربطه بالرموز الأخرى، حيث تمثّل بنيته جزء من النتاج الحضاري للمجتمع الذّي يشتمل على مجموعة من المعاني الرمزية والدلالية المرتبطة بواقعه حيث يمكن أن تعتبر ضمن ميكانيزمات عملية تحقيق الذات كحاجة إنسانية (الركابي و عاجل، 2020، صفحة 411).

وقد أشار رفعة الجادرجي في مقالته " إشكالية العمارة و التنظير البنيوي" إلى مفهوم الحاجة في العمارة والتّي حدّدت في ثلاثة عناصر وهي: الحاجة النفعية، والحاجة الرمزية، والحاجة الجمالية أو الإستطيقية، فالحاجة النفعية ترضي متطلبات البقاء القاعدي الأساسية وهي المأكل والراحة والحماية، أمّا الحاجة الرمزية فقد عرّفها بأنّها تلك المقوّمات التّي يعيها الفرد والتّي تركّب مؤلّف هويّته، وتتمثّل هذه المقومات برموز تحملها تجسيدات مادية تشير إلى هويّة الفرد، كما يعلن الفرد عن هويّته عبرها، فهي تلبّي متطلبات إثبات الذات الفردية والجماعية من خلال الدلالات المعنوية كالأشكال والألوان والتقسيمات الداخلية، أما الحاجة الجمالية كما وصفها الجادرجي فتهدف إلى التخفيف من حدّة الملل الذّي يحدث بسبب التفاعل المتكرّر اليومي، ويتحقّق هذا عن طريق التجديد والتغيير وفق إيقاع متوازن ومتناسق (الجادرجي، 2006، الصفحات 203- 204) حسب المستوى الاقتصادي للأفراد حتى لا تنتج فوضى بصرية، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الرموز ضمن مورفولوجية السكن التقليدي الجزائري لها قانون اجتماعي وتراتبية تنظّم استخدامها، وإلاّ تحوّلت إلى فوضى، وقد فسّر أحد روّاد المدرسة التفاعلية الرمزية جورج هربرت ميد george herbert mead فوضى الرموز من منظور الوعي بالذات، مشيرا إلى أنّ الرموز تفسّر أشياء أخرى، وأنّنا حالما نتمثّل الرموز فإنّنا نستحضر خصائصها

المادية شاخصة أمامنا، لأنّها عندئذ ستكون لها صورة في أذهاننا تعكس موضوعا أو قيمة، أو تستثير حالة نفسية أو وجدانية (جودة، 2017، الصفحات 203- 204).

ولكل سياق ثقافي نظام من الرموز ناتج عن السلوك الاجتماعي لأفراده، ونظام الرموز في بنية السكن التقليدي الجزائري يحمل معاني مرتبطة بالنظم الحضارية والثقافية للمجتمع كون كلّ الأشياء والمواضيع يفهم معناها من خلال النظم الثقافية الرمزية، والتّي تأخذ بطريقة ما الشّكل المحدّد لها والذّي يأخذ المعنى من خلال حاجات أفراد المجتمع والمنظومة الثقافية، ولهذا تعدّ الرموز الوسيلة لتركيز المعلومات المدركة في بيئة معينة أو مكان معين، حيث يقوم الإنسان بترميز المعطيات في محيطه والاستجابة لها بشكل فعّال اعتمادا على المعنى الذّي يستند إلى الخبرة السابقة وعلى التأثير الثقافي عليه (الماجدي، 2009، صفحة 288). وللرمز قوّة تمثيل داخلية فهو أيّ شيء يبرز لنا أو يذكّرنا بشيء آخر، يمكن أن يكون كلمة مكتوبة أو مسموعة، إيماءة أو مخطّط، رسم أو صورة، رداء أو لون، مبنى أو مجسّم أو شكل، وكما ترتّب الكلمات بشكل معيّن لتكوّن جملا مفيدة توضّح معاني محدّدة، تكوّن الأشياء والأشكال في السكن التقليدي الجزائري مجموعات رمزية لها معاني معيّنة بترتيبها، وهذا ما يرسّخ في الذهن صورة نمطية متكرّرة معروفة، كلون الباب وشكله، طقوس إنشاء العتبة، تعليق حذوة الحصان أو يد فاطمة أو الخامسة على الباب أو بجانب المدخل، وهندسة وقياسات النوافذ والفتحات الخارجية، هندسة الفضاء والتقسيم الداخلي لفضاءات وأجزاء السكن بين الجنسين...الخ.

4. الأبعاد الوظيفية للرموز ضمن بنية السكن التقليدي الجز ائري:

للرموز في بنية السكن التقليدي الجزائري أكثر من وظيفة، قد يبدو بعضها متّسقا هادفا، وقد يبدو بعضها في صورة الاختلاف والتعاكس، فكما تعبّر عن حاجات الناس المعلنة تعبّر أيضا عن حاجاتهم غير المعلنة وتزداد هذه الأخيرة في ظلّ غياب الشعور بالأمان وضمور اكتفاء الحاجات الإنسانية الأولى، وعند التطرق في شأن هذه الوظائف من الزاوية السوسيولوجية، يحيلنا الأمر مباشرة إلى التمييز بين معني كلمة "وظيفة "ضمن توجّه ورؤية روبرت ميرتون robert merton حيث ميّز بين الوظيفة الظاهرة fonction explicite والوظيفة الكامنة fonction latente فالوظيفة الظاهرة تعبّر عن الغاية المستهدفة والمحدّدة في وعي الفاعل الاجتماعي وإدراكه، والتّي يسعى إلى تحقيقها، في حين أنّ الوظيفة الكامنة تتحقّق عبر ممارسات الفاعل الاجتماعي دون قصد أو وعي وغالبا لا تكون من ضمن اهتماماته وأهدافه المرجوة مسبقا، لذلك وجب المرور من الفهم إلى التفسير حتى يفهم معنى الرمز في بنية السكن التقليدي ضمن السياقات التّي أنتجته (بوعزيزي، 2010، صفحة 22)، حيث يبنى التفسير هنا على فهم المستوى المورفولوجي للرّمز، أي بنيته، وكيفية إنشاءه ودلالاته ضمن شبكة المعاني

الثقافية، وباعتبار الرمز إشارة تحمل وتدلّ على معنى عام، وباعتبار أنّ السكن التقليدي كتجسيد لها هو احتواء وتجلي لمجمل المعتقدات الشعبية والقيم الثقافية للمجتمع الجزائري والمحدّدة في كلّ من الرموز والأعراف والتعاقدات الطقوسية والمعمارية، فإنّه لا يمكن تفعيلها إلاّ عن طريق تعلّمها وفهمها للرفع من مستوى التواصل الرمزي ضمن فضاء السكن التقليدي وتعزيز الفرد الساكن لموضعه الوجودي وإثبات انتماءه إلى المكان (الركابي و عاجل، 2020، الصفحات 412-413).

فوجود لغة مشتركة بين السكن كفضاء معيشي والساكن يسهّل إدراك معاني ودلالات الرموز من خلال تحليل محتوى البنية المشيّدة ومكوّناتها التّي تحمل المعاني وتوصل الرموز، حيث يتميّز الإنسان بخصائص إدراكية، ويتميّز المكان بخصائص تركيبية، وعند ترجمة الثانية للأولى نحصل على تطابق بين الصور الذهنية المخزّنة والحدث المكاني مما يولّد الإحساس بالألفة والانتماء (الماجدي، 2009، صفحة 290)، وهذا ما أشاد به إيميل دوركايم Emile Durkheim حيث أوضح أن فهم الرمز يتطلب منا فهم التفاعل ما بين شكله المادّي ومدلولاته الاعتبارية والحضارية، وهذا يضعنا مباشرة في إطار السكن التقليدي الجزائري كبنية مشحونة بكثافة رمزية تفصح عن صلتها الأنثروبولوجية العميقة بمرتكزات السوسيولوجيا الرمزية التّي تشمل وتتضمّن تقفي أثر الرمز، مرورا بمدخل أنثروبولوجي يقف عند الفروقات والتراكمات الاجتماعية والثقافية، وهذا التقاطع بين ما هو سيميولوجي وأنثروبولوجي وسوسيوثقافي يضعنا أمام مدخلين متكاملين:

نسق مفتوح: تربط فيه بنية الرمز بسياقات إنتاجه.

نسق مغلق: يعد الرمز فيه مستوحى من نفسه، من الأجزاء المادّية التّي تهيكل علاقة الساكن بسكنه.

5. رمز الخامسة، تحليل سيميائي:

سنتناول بالدراسة والتحليل وفق ما سبق واحد من أبرز الرموز المميزة والأكثر انتشارا واستحضارا حيث تشترك عدّة ثقافات على مستوى العالم في سيميائيته، رمز الكفّ، الخامسة، الخمسة، أو يد فاطمة، كلها تسميات لرمز اليد الذّي يستخدم لصدّ العين الشريرة والحاسدة وفقا للمعتقدات الشعبية القديمة، فيعلق على مداخل السكنات وداخلها، وفي السيارات ويلبس أيضا كحلي ومجوهرات، ويعود تاريخ هذا الرمز إلى أنّ الإنسان كان قديما يضع يده على الصخور وكأنّه يريد أن يثبت بصمته وتواجده في المكان، أمّا بالنظر إلى التفسيرات والامتدادات التي أعطتها الثقافات والحضارات التاريخية لهذا الرمز نجد أنّه من الرموز التي سبقت ثم تزامنت وتعايشت مع الديانات السماوية، فحسب دراسات علماء الآثار وباحثي التاريخ منذ العصور الوسطى، يرجع رمز الكفّ ذو

خمس أصابع ممدودة لأعلى أو الخامسة إلى العناصر والكتابات والرموز المجهزة لغرض الحماية من الشرور الغيبية والقوى الخفيّة والأذى البشري المتمثّل بالحسد، إضافة إلى جلب الحظّ وينتشر هذا الرمز بصفة كبيرة في شمال إفريقيا حيث يرمز تاريخيا إلى "تانيت" آلهة الرزق والخير والخصوبة في قرطاج (ديفل، 2016، صفحة 176)، ويتم ربط اليد بأهميتها الأساسية في حياة الإنسان باعتبارها عضوا بارزا من أعضاء الجسم، كما أنّها تبدع وتولّد الحياة حيث تستمر في منح الإنسان قوّة الدفاع والحماية وصدّ تيّار التأثير السيّئ للعين الحاسدة (بوعيطة، 2022، صفحة 197).

وهنا ندرج ما استند إليه الأنثروبولوجي الأمريكي إرفنج غوفمان Erving Goffman بأنّ الرموز الثقافية تعابير يستنبطها الإنسان من حياته اليومية أو من أعضائه الجسمية، وفيها رمزية وتفاعلية بين المجموعات البشرية، كما تمارس هذه الرموز سلطتها على الفرد وتحدّد إختياراته فلا يستطيع الانفصال عنها بل يقبلها ويتعايش مع العوامل والمعطيات المادية والاقتصادية والإجتماعية والقيم والمعايير التي تحظى بقبول عام، فنرى الأفراد دائما يحرصون على إتّباع معايير تتماشى ومعتقداتهم حتى يحافظوا على توازنهم الروحي ضمن نسق الرموز الثقافية في محيطهم (أحمد، 2020، الصفحات 289-290)، ورمز الخامسة من الرموز التيّ فرضت وجودها ضمن معطيات ومعتقدات النسق الثقافي لعديد الشعوب والمجتمعات عبر العالم حيث تتموضع في إطار قداسي معيّن مرتبط باستثارة جوانب من التوازن الروحي والتسليم المطلق.إلاّ أنّ هذا الرمز امتلك دلالات دينية مرجعية فعند المسلمين أطلق عليه اسم "يد فاطمة" « la main de fatma » نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، كما يرمز إلى الصلوات الخمسة وإلى أركان الإسلام الخمسة وإلى الآيات الخمسة من سورة الفلق التي يتم قرائتها للتحصّن من العين الحاسدة، وحسب المعتقدات الشعبية الراسخة فإن الخامسة رمز ليد المرأة المقدّسة القويّة القادرة على الحماية من الشرور لحاجتها القاعدية للحماية أوّلا، ولهذا يعرف عند المسيحيين بكفّ مريم إشارة لمريم العذراء، ويعرف عند اليهود بكف موسى أو كف ميريام أخت النبّيين المذكورة في التوراة، ومن أحدث البحوث التي أجريت حول معنى ودلالة هذا الرمز هو بحث (Apostolos Cappadona) المعنون (Discerning the hand of Fatima)

حيث تتبّعت الباحثة تاريخ رمز الكفّ بداية من حضارات مصر وبلاد الرافدين، وأوضحت أنّ رمز اليد اليمنى المفتوحة يستخدم لمعنى الحماية والأمان عند السومريين والأكاديين وكانت تعرف عندهم باسم " كفّ عشتار" أو " كفّ إنانا" (حسين، 2011)، أمّا عن ارتباط هذا الرمز بكينونة الأنثى وبشخصيات نسائية على مّر التاريخ واختلاف الثقافات راجع للاعتقاد الغريزي الكامن بأن النساء هنّ الأكثر حاجة للحماية من القوى الغيبية، والأنسب لإنتاج وإعادة إنتاج النظم القيمية ونسق الرموز الثقافية للمجتمعات.

ويعلّق رمز الخامسة في مدخل السكن التقليدي حيث يكون أول ما تقع عليه عين الزائر أو الداخل للسكن، بهدف تأمين السكن والساكنة من شرّ عين الحسد، فهذا الأخير وكمعتقد شعبي تحوّل بالممارسة إلى رمز مرتبط بذات و بهّوية الفرد إذ لا يخلو مجتمع من المعتقدات الشعبية سواء ارتبطت بالتفكير الخرافي أو المنطقي، ففي سياق الصراع من أجل البقاء وعن طريق تعاون الأفراد بين بعضهم البعض تتكوّن طرق الشعبية وتنشأ بطريقة واعية وغير شعورية، وتبدو ثابتة وراسخة وأصيلة على الرّغم من أنّ أحدا لم يقصد حدوثها أو يتعمّد تكوينها أو يعرف عنها مسبقا. كما أنّ رمز الخامسة مرتبط في خصوصيته بالأمان داخل المجتمع بتعبيره عن معتقد ممارس يرجى منه الحماية من شرور عين الغير وحسدهم، ويعدّ من الرموز الثقافية الشعبية التيّ تمثّل قدرة التحكم في الفضاء الخاصّ المسكون ضمن الفضاء العامّ المشترك والاستعداد لما قد يطرأ من أحداث قد تؤثّر على بنية السكن، ذلك أنّ الإنسان الأوّل ومنذ الوجود كان يعيش في خوف من مختلف الموجودات ممّا دفعه غريزيا إلى مدّ اليد بوضعها الدلالي في رمز الخامسة كاستجابة لحاجة حيوية تكمن وظيفتها الظاهرة والباطنة في حماية النفس من الأخطار التّي تهدّد سلامتها وأمنها.

وهذا ما يؤكّده معنى اليد كقيمة رمزية، حيث تعني اليد: السلطة، القوّة، الخير، القدرة، الملكية، الخصوصية، الطاعة والولاء، وهذه المعاني المتعدّدة لرمز اليد توحي بمضمونها الباطن عبر تجسيدها المادّي في بنية السكن التقليدي الجزائري لصدّ العين الحاسدة الشريرة عبر أصابع اليد الخمسة الممدودة، تدعيما للمعنى القوّي لتوظيف اليد في مقولات ومواقف القوّة والحماية والأمن والأمان، والتي تعدّ من الحاجات الإنسانية القاعدية التي لا يستطيع الإنسان العيش بدونها حتى لو توفّرت جميع الحاجات الفيزيولوجية الأولى، فحاجة الإنسان الفطرية إلى الحماية والحفاظ على وجوده وممتلكاته وأمانه أولوية قصوى وحالما تتوفر هذه الحاجة ويتمّ إشباعها يتمثّل الإنسان حاجاته الإجتماعية المتمثّلة في الحبّ والانتماء عبر شبكة العلاقات الإنسانية العاطفية والأسرية والإجتماعية، وهذا ما أوضحه أبراهام ماسلو عن نظريته عبر هرم الحاجات الإنسانية.

6. دلالات رمز الخَامسة ومَثيلاتُه في المخيال الجَز ائرِي:

يعطي استحضار رمز الخامسة ضمن بنية السكن التقليدي الجزائري دلالة الترابط بين شيئين أحدهما محسوس والآخر مجرّد، فالشكل المرئي القابل للملاحظة وهو التجسيد المادّي للكفّ، واليد الحقيقية المرفوعة ذات الخمس أصابع، تستحضر في الوعي بوجودها حقيقة ملازمة لها وغير مرئية، وهي الرقم خمسة الذّي يحمل في سيميولوجيته دلالات المقدّس وحالة اللّجوء إلى الدين والارتباط بالله، إضافة إلى تصوّرها كوسيط بين الطبيعة الإنسانية والثقافة، حيث يعكس هذا الرمز

ضمنيا المخيال الجزائري لحالة عدم الشعور بالأمان والخوف من فقدان النعم، فعندما تختل موازين العلاقات الاجتماعية ويحلّ الخوف محل الراحة يتمّ اللجوء بوعي تامّ للعلاقة الثابتة بين الإنسان والله من باب الإيمان العقائدي، كمبرّرات لأبعاد أعمق بكثير من دلالاتها الظاهرة، ففي ظلّ الحاجة إلى الأمن والحماية يعود الإنسان إلى أصله البدائي الذّي اخترع المعبد والمقدّس والطوطم والتمائم ليحتمي بها في حالات الخوف والحاجة إلى الحماية والأمان.

وينتشر رمز الخامسة ومثيلاته من عجلة السيارة وحدوة الحصان ورؤوس وقرون بعض الحيوانات بطريقة ملفتة ضمن بنية السكن التقليدي الجزائري، وتعلّق هذه الرموز غالبا أعلى باب السكن أو على الجانب وحتى داخل السكن، والملاحظ أنّه يتمّ استحضار رمز الخامسة في السكن التقليدي الجزائري بشكل محتشم ومستتر خارج السكن فلا يكون الشكل المادّي له بارزا وملفتا، و يفضّل أن يكون حضوره بشكل ملفت داخل السكن سواء في المدخل أو في الفضاء المخصّص لاستقبال الضيوف ويكون على شكل مجسّم أو تمثال أو صورة أو إطار يجذب النظر ويشتّت تركيز الحاضرين عن البنية المادّية للسكن وممتلكات الساكنة وحتى نمط وسيرورة العلاقات فيما بينهم، عكس ماهو سائد في المدن التونسية القديمة وأحيائها الشعبية حيث يهدف الأفراد إلى إبراز حضور الخامسة ضمن الفضاء السكني بأشكال فنّية متعدّدة وملفتة بحيث يتمّ إستهداف بعدها الجمالي والوظيفي على حدّ سواء.

والجدير بالذّكر أنّ حدوة الحصان تعتبر أيضا من أبرز الرموز الوقائية المنتشرة ضمن بنى السكنات التقليدية الجزائرية، ويعود تاريخ انتشار هذا الرمز إلى القرن الرابع حيث اعتقد الإغريق أنّ تعليق حدوة الحصان على باب السكن له قوّة سحرية خاصّة لردع الشيطان ومنعه من دخول السكن، كما تمّ اعتباره رمز لجذب الخصوبة والحظّ الجيّد لما له من تطابق تماثلي طبيعي ومحسوس على المستوى الشكلي والوظيفي مع هلال القمر رمز الخصوبة والحظّ الجيّد، وتعلّق حدوة الحصان وفق قاعدة ثابتة متمثّلة بجعل طرفيها الحدّين للأعلى حفاظا على فعاليتها (باناتي، 2003، الصفحات 15-16)، ويستند الفرد الجزائري في إعتماده هذا الرّمز الوقائي إلى مرجعيته الدينية الإسلامية ببركة الخيل في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها وادعوا لها بالبركة، وقلّدوها ولا تقلّدوها بالأوتار ".

واستنادا إلى ما تمّ طرحه فالرموز الوقائية كالخامسة وحدوة الحصان تقدّم في المخيال الجزائري دلالات ذات فعالية رمزية عميقة في معانيها، فلا ترمز حدوة الحصان والخامسة للحماية فقط بل تدعو إلى الحدّ من الحسد والابتعاد عنه، وتعكس مضامين الخوف والهيبة منه كسلوك سلبي غير مرغوب، وهنا تكمن الوظيفة الأساسية لهذه الرموز في أبعادها الثقافية التنظيمية لنسق الحياة

الاجتماعية فيشعر الإنسان بالأمان وسط شبكة علاقاته الاجتماعية، حيث يكون له تأثير متبادل ومتواصل بين تمثّلاته والواقع ويلبّي جزئيا حاجته لتحقيق الذات، خاصّة أنّها تضع صاحب السكن في موقع القوّة والسلطة والسيطرة على ممتلكاته، وتماشيا مع ما تمّ ذكره يوضّح ميشال فوكو michel foucault في كتابه "المعرفة والسلطة" أنّ المسافة كبيرة بين ما تظهره الرموز وما تحجبه وما تومئ إليه وما تستره (العيادي، 1994، صفحة 07)، غير أنّ هذا التباعد ذاته هو ما يجعل عملية التأويل ممكنة، فما تتطلبه من جهد وشكّ وتساؤل يجعل من قراءة الرموز وظيفة إبداعية تولّد معاني التأمّل والإبداع والإبتكار بين الخفيّ والمعلن، بين الدلالة والمدلول وبين الصورة والمعنى.

وحيث أنّ الثابت في الطبيعة البشرية يحتّم على الإنسان إقامة نظام من العادات والمعتقدات لإرساء دعائم المجتمع، فإنّ استحضار رمز الخامسة ومثيلاته في بنية السكن التقليدي الجزائري ينطوي على تسهيل بلورة العيش الرّمزي للفرد الساكن ضمن معطيات بيئة مجتمعه وذلك بتوظيف فكرة التوافق والقبول مع ما هو سائد من قيم ثقافية واجتماعية وحضارية، والجدير بالذّكر أنّ هذه الرموز المعبّرة عن موروث ثقافي خصب لشبكة من المعاني والدلالات، منتشرة في المجال الحضري بدرجة كبيرة باعتبار أنّ المعتقد المتجذّرة منه وأبعاده التصوّرية مهيمنة في تمثّلات ومخيال الفرد الجزائري بغضّ النظر عن تحضّره وانتماءاته.

خاتمة:

إنّ الخوض في موضوع الرموز في إطار بنية السكن التقليدي الجزائري، قد أحالنا إلى الإحاطة بجملة من العناصر المؤثّثة للموضوع، وتحديدا تلك المتعلقة بالدلالات والتمثّلات والمتخيّلات والرموز الكامنة في بنية السكن التقليدي، وتلك الارتباطات الناشئة بين الحاجات النفعية له – أي السكن- والحاجة الرمزية وتلك الأبعاد الوظيفية للرموز والحاملة لدلالات وسيميائية ضاربة في تاريخ العلاقات الإنسانية للأفراد وبالتالي فإن استحضار الفرد الجزائري للخامسة وحدوة الحصان كرموز وقائية ضمن البنية المورفولوجية للسكن التقليدي مستند بإحالتها إلى مرجعية دينية تبرّر حاجته لها في تحقيق الذّات والشعور بالأمان، والتموقع في دلالات القوّة والسيطرة على الفضاء السكني الخاصّ، بإعتباره دعامة الوجود والقبول والإنتماء للنسق الإجتماعي والثقافي لبيئة السكن، حيث أنّ حاجة الفرد لمثل هذه الرموز تعكس لحظات الاستعدادات الكامنة في الطبيعة البشرية لمشاعر الخوف من التعرّض للأذى والقلق من زوال

الخير والوفرة والنعم، ويحيل في عمقه إلى محاولة الحفاظ على السكن في كلّيته من الأذى وحمايته، حيث يكشف من زاوية سوسيوأنثروبولوجية تمثّلات الحاجة إلى قوى غيبية لتجلّي الحماية وجلب الخير والحفاظ على أهمّ عناصر الوجود والكينونة.

قائمة المصادروالمراجع:

باسم هاشم حسن الماجدي. (2009). دور الملمس في الصفات الإدراكية للفضاءات الداخلية المعمارية. المجلة العراقية للهندسة المعمارية، 05(16)، الصفحات 285- 299.

تشارلز باناتي. (2003). قصّة العادات والتقاليد وأصل الأشياء (الإصدار ط1). (مروان مسلوب، المترجمون) بيروت: دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع.

حافظ الأسود. (1991). المدخل الرمزي لدراسة المجتمع. حولية كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية(14)، الصفحات 319- 352.

رفعة الجادرجي. (2006). في سببية وجدلية العمارة (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

سلمان عبد الله سعدون المعموري. (2011). إنسانية العمارة العربية الإسلامية: العمارة بين متطلبات الحاجة ومثالية التنظير. المجلة العراقية لهندسة العمارة والتخطيط، 10(22)، الصفحات 239- 254.

سميحة ديفل. (2016). صناعة الحلي بقسنطينة خلال العهد العثماني. مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ(11)، الصفحات 171- 199.

عبد الحميد ديلمي. (2007). دراسة في العمران (السكن والإسكان) (الإصدار دط). الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

عبد العزيز العيادي. (1994). ميشال فوكو، المعرفة والسلطة (الإصدار ط1). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

عماد صولة. (30 جوان, 2005). سيرورة الرمز من العتبة إلى وسط الدار: قراءة أنثروبولوجية في السكن التقليدي التونسي. مجلة إنسانيات، 09(28)، الصفحات 5-22.

فجر علوان جودة. (01 ماي, 2017). فوضى الرموز الثقافية كما تبدو على واجهات وجوانب وسائل النقل العام. مجلة تطوير، 04(04)، الصفحات 91-106.

محسن بوعزيزي. (2010). السيميولوجيا الإجتماعية (الإصدار ط1). مركز دراسات الوحدة العربية.

محمد أحمد. (2020). الرمز والمعنى في الدراسات السوسيولوجية. مجلة العميد، 09(34)،

الصفحات 287- 323.
محمد بوعيطة. (2022). الحلي التقليدية المغربية: التقنية والبعد الدلالي. مجلة الثقافة الشعبية(58)، الصفحات 184-201.
محمد حسين حسين. (16 نوفمبر, 2011). طقوس درء العين: يد فاطمة والتسنين. تاريخ الاسترداد 02 نوفمبر, 2022، من جريدة الوسط: www.alwasatnews.com/news/60894/html
منصف المحواشي. (01 سبتمبر, 2010). الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحوّل. مجلة إنسانيات، 14(49)، الصفحات 15- 43.
ندى خليفة الركابي، و وائل إبراهيم عاجل. (2020). الرمز كأداة لتحقيق التواصل العمراني. مجلة مركز دراسات الكوفة، 01(56)، الصفحات 407- 442.